

الرحلة في شعر النابغة الذبياني - المعلقة أنموذجاً -

**The Journey in the Poetry of Al-Nabigha Al-Dhubyani
(Al-Mu'allaqah as a Model)**

Saja Hazem Khalaf
Assistant Teacher
Nineveh Education
Directorate

سجى حازم خلف
مدرس مساعد
مديرية تربية نينوى

Saja.h2240@gmail.com

تاريخ القبول

٢٠٢٢/٣/١٠

تاريخ الاستلام

٢٠٢٢/٣/٧

الكلمات المفتاحية: الرحلة - الناقة - النابغة الذبياني - الصحراء - المعلقة

Keywords: the journey - the camel - Al-Nabiga Al-Dhubyani - the desert - the hanging

المخلص

تتطلق هذه الدراسة بإلقاء الضوء على الرحلة وعلاقتها بالشعر الجاهلي، وكذلك رحلة الشاعر على ناقته عبر الصحراء والجبال والوديان وعلاقة الارتحال بالأطلال والدمن والرسم. ومن ثم علاقة الشاعر بناقته التي توازن المرأة في القصيدة الجاهلية فكان النابغة في رحلته على ناقته أنموذجاً رائعاً في وصف هذه الرحلة على ناقته التي يمتطيها للوصول الى غايته.

Abstract

This study begins by shedding light on the journey and its relationship to pre-Islamic poetry, as well as the poet's journey on his camel through the desert, mountains, and valleys, and the relationship of migration to ruins, blood, and painting. And then the poet's relationship with his elegance that balances women in the pre-Islamic poem, so the genius in his journey on his camel was a wonderful model in describing this journey on his camel that he rides to reach his destination.

لقد عُرف العرب بالتنقل والترحال من مكان لآخر تاركين أماكنهم ووطنهم فهم دوماً يحنون إلى الوطن. ولا ينسونه لأنه يمثل لديهم الكرامة والعزّ والوجود، إذ نجد أنّ الحياة عندهم هي تربية الحيوانات ورعيها كالشياه والإبل، فإن قلّ الماء أو جذب راح الجاهلي يجوب الصحراء بحثاً عن الكلأ "إنها انتقال من رغد المكان الى قسوة الأرض بحثاً عن البقاء".
ولا يخفى على الشاعر أنّ للرحلة مخاوف كثيرة وجزع وقلق إذ نجد أنّ النابغة حين رأى الركاب راحلة قال^(١):

زعم البوارح أنّ رحلتنا غداً ويذاك خبرنا الغراب الأسود
لا مرحباً بغدٍ ولا أهلاً به إن كان تفريق الأحبة في غد
حان الرحيل ولم تودع مهدداً والصبح والإمساء منها موعدي

لعل قسوة الحياة هي الدافع الذي يدفع العرب الى التنقل وتغيير الحياة والتفكير في طبيعة ثانية يقول النويهي^(٢) : انها موقف من حياة طبيعية كثيفة في سلوك الجاهلي في صحراء ذات طبيعة مضيئة ومجتمع مليء بالاضطراب والانتقال والحاجة والحرمان والتنافس والصراع على المتع القليلة التي تقدمها تلك الطبيعة الصحراوية الشحيحة.
فالقبايل تنتقل من ماء الى ماء ومن سهل الى آخر فالجاهلي يتبع مساقط الغيث ومواقع الخصب لرعي ابلهم في المكان الذي نزلوا به.
فالارتحال كان هو الدعامة التي تقوم عليها الحياة الجاهلية، فالشعر الجاهلي لا يخرج عن محيط الارتحال.

فالوقوف على الأطلال مثلاً يدل على رحيل المحبوبة عن ديارها ومفارقة الشاعر لها وكذلك يدل على مرور الشاعر أثناء رحيله بهذه الأطلال مستوقف الأصحاب كقول امرئ القيس^(٣) :
ققا نبيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(١) ديوان نابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار المعارف، ط٤، بيروت، ٢٠١٧م: ٨٩-٩٠.

(٢) الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر: ٢٩٤/١-٢٩٥.

(٣) ديوان امرئ القيس، اعتنى به وشرحه عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، ط٤، بيروت- لبنان، ٢٠٠٨: ٢١.

وكذلك قوله^(١):

قفا نبيك من ذكري حبيبٍ وعرفانٍ ورسمٍ عفت آياته منذ أزمانٍ

فضلاً عن وصف الخيل والابل والصحراء، فكل ما يتحدث عنه الشعر الجاهلي له علاقة بحياة الجاهلي وطريقة عيشه وعدم استقراره والتنقل المستمر من قبيلة الى قبيلة ومن مكان الى آخر، إذ نجد أن الشاعر عندما يقف على المدن التي أضحت خلاء وأضحى أهلها مرتحلين عنها ولم يبقَ فيها غير الحيوان خالية من الانسان ويدرك أنه بقي وحيداً فما عليه الا الرحيل وذلك مثل قول النابغة^(٢):

دعاك الهوى واستجھلتك المنازلُ وكيف تصابي المرء والشيب شاملُ

وقفت بربع الدار قد غير البلى معارفها والساريات الهواملُ

فالنابغة تصور شعور الغربة والحنين الى الأصحاب والأحباب فلم يجد سوى الخراب والدمار في دياره.

إنّ البيئة في العصر الجاهلي تتطلب الارتحال من مكان لآخر، فالبيئة الجغرافية مليئة بالمخاطر، فالوحوش والحيات والحشرات والرياح العاتية والليل وما فيه من مخاوف كل ذلك أدى الى عدم الاستقرار في حياة الجاهلي. وقد نجد أنّ العرب كانوا يتخذون الغزو على القبائل أو على المازة وسيلة من وسائل عيشهم، وتلك كانت حياة أكثر العرب فرحتهم كانت لها دوافع كثيرة ولها أسبابها منها:

١- للتجارة: فقد عرفت شبه الجزيرة العربية بقوافلها التجارية التي كانت تتجه الى اليمن شتاءً والى الشام صيفاً^(٣).

٢- التكسب بالشعر: لقد كان الشعراء يكتثرون من الترحال بين البلدان، وذلك لغرض مدح ملوكها حتى أصبح التكسب مهنةً لدى بعض الشعراء.

٣- الطرد: يُنفى الشخص في العصر الجاهلي عن قبيلته إذا خرج عن العادات والتقاليد وعن القيم القبلية المتعارف عليها.

(١) ديوان امرؤ القيس، عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، ط٤، بيروت- لبنان، ٢٠٠٨: ١٥٩.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم: ١١٥.

(٣) تفسير القرآن الكريم، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الايمان، مصر، ط١، ١٩٩٦م: ٨/ ٢٨٣.

٤- الفرار: يفرّ المرء من قبيلته عندما يقوم بفعل غير مقبول ويدرك أنّ سادته علموا بذلك وسيعاقبونه فيفضل الهرب من القبيلة والنابغة الذبياني خير مثال على هذا الغرض بعدما ساءت علاقته مع النعمان ، فهدر النعمان دم النابغة واختلفوا في سبب توتر العلاقة بينهما.

٥- الصعلكة: فالفقر سبب رئيسي من أسباب الارتحال فالصعلكة تعني الفقرة فقد عُرف الصعاليك بأنهم الفقراء الذين لا مال لهم^(١).

ومن الارتحال أيضاً للحاق بالحببية ومن أخبار الجاهليين المشهورة رحلة المرقش الأكبر من أرض العراق الى اليمن ليرى ابنة عمّه أسماء وفي ذلك يقول طرفة بن العبد^(٢):
ترحلُ من أرض العراق مُرقشُ على طرب الهوى سراعاً رواحله
الى الشرق أرض ساقه نحوها الهوى ولم يدِر أنّ الموت بالسرو عائله

وكذلك لتسلية الهموم وقد كثر ذلك في الشعر الجاهلي يقول لبيد^(٣):

وكنت إذا الهموم تحضرتني وخنثُ خلةً بعد الوصال
صرمتُ حبالها - وصدت عنها بناجية تجلُ عن الكلال

وقد نجد أنّ بعض الأفراد ارتحلوا عن مواطنهم وديارهم وذلك من أجل اللهو واللذة كقول عمرو بن كلثوم:

وكأسٍ قد شربت بيبلك وأخرى في دمشق وقاصرنا

أو ربما كان لغرض آخر فربما كان تأمراً إذن يوجد أكثر من سبب لغرض الرحلة في العصر الجاهلي فكل هذا يدلّ على الرحلة والانتقال في العصر الجاهلي وتلك كانت حياتهم؛ لأن بيئتهم كانت مشبعة بروح الارتحال والانتقال.

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة صعاليك: ٢٤٥١.

(٢) طرفة بن العبد، تحقيق وشرح: الدكتور رحاب خضر عكاوي، دار الفكر العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٣م: ١٢٢.

(٣) لبيد بن ربيعة العامري، تحقيق: دكتور احسان عباس، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤م:

وصف الناقة:

إنّ من أكثر الحيوانات الموصوفة في الشعر الجاهلي هي الناقة والخيل، كان موقف الانسان والحيوان من أقدم العصور غريباً، فهو يستأنس به وكذلك وسيلة لنقله ويقدم بعضه. إنّ آداب الأمم نظماً ونثراً حافلة بصور الحيوانات التي أعانت الانسان على تذليل مصاعب الحياة ومنحته القدرة الفائقة على وصفها بالأوصاف التي خلقتها في آثار بقاياها^(١). إذ نجد أنّ العرب تعلقوا بحب هذه الحيوانات ومنحوها رعايتهم ولم يستطيعوا أن يعيشوا بمعزل عنها.

وكان للحيوان أكثر الأثر في حياتهم فقد اعتنوا به عناية خاصة ووصفوا جسمه وقوته وعاداته وحركته وطباعه، فقد عُرف عن بعض الشعراء بالإجادة في وصف الحيوان مثل طرفة بن العبد وامروء القيس، والنابعة في معلقته.

فقد تحدثوا عن الحيوان كثيراً فتكلموا عن الناقة ووصفوا أشكالها وأعضاءها وطبائعها ورسخوا لنا من خلال أحاديثهم سلوكها وعاداتها وهي تقطع المفاوز وتخترق الصحارى^(٢).

كانت العرب تنتقل من مكان الى آخر في سبيل العيش، فتختار مسافات طويلة وتخترق الصحاري واسعة وكان سبيله الى هذا التنقل حيوان تقنسم معه هذا العيش الشديد يقطع عليه المسافة، فيرافقه ويعايشه ويقضي معه أكثر حياته فيحبه، ويرى فيه أصدق رفيق يتحمل العناء والسير لمسافات طويلة لذلك أحب العرب الحيوان فهو ملاذه.

لذلك نجد أنّ الشاعر إذا أراد أن يتحدث عن راحلته شبهها بحمار وحشي يسوق اتته. فالرحلة لم تعد مجرد حيوان، وإنما أصبحت رفيقته وصديق دربه ورحلته.

فالأدب الجاهلي زاخر بوصف الحيوان على اختلاف أصنافه وألوانه للقائد العربي المخصصة في وصف الحيوان للحيوان والتي تعدّ من أجمل الشعر وأظهره جدّة وطرافة وحياء^(٣).

(١) وصف الطبيعة في الشعر الجاهلي، اسماعيل احمد شحادة، مؤسسة الرسالة، دار عمان: ٩٩.

(٢) المصدر نفسه: ٩٩.

(٣) الطبيعة في الشعر الجاهلي، نوري حمودي القيسي، دار الارشاد للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٤: ٩٩-١٠٠.

صورة الناقة عند القدماء قديماً وحديثاً:

١- عند القدماء:

لقد شكّل نصّ ابن قتيبة (ت ٢٩٦هـ) المشهور ((سمعت بعض أهل الأدب))^(١) الأساس لكثير من الأحكام التي صدر عنها كثير من النقاد والباحثين في تناولهم لقضية الرحلة. والناقة منتقدين في الغالب هذا الطرح.

فالدكتور محمد مندور يجعل من وصف ابن قتيبة مناسبة ليعلي أنّ الشاعر الجاهلي لم يكن له تأثير في صياغة هذا التقليد ((وإنما هي تقاليد الشعر الجاهلي استمرت حية مسيطرة))^(٢).

فهذا التقليد من شكل بناء القصيدة الجاهلية على وفق ما حدده ابن قتيبة من طلل ورحلة ومديح وأغراض أخرى وما يهمننا في هذا الجانب ما قيل عن رحلة الشاعر أو ناقته فقد ترك ابن قتيبة عما يبدو في نصه السابق صورة الناقة ومثلها الطلل صورتين من دون أن يعطي ملمحاً فنياً لكل منهما وذلك لخصوصيته آراء ابن قتيبة تلك والتي تتصل أساساً بموضوع خاص ومحدد بنى عليه ابن قتيبة تصوره.

وكذلك تُعدّ النفاقة الجاحظ الذي تحدث عن دلالات بعض من قصص الحيوان معرض بناء صورة الناقة في القصيدة العربية ملحماً مهماً وريادياً إذ يقول ((ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً، وقال: كأنّ ناقتي بقرة من ضمنها كنا أن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أنّ ذلك حكاية بعينها، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المعادية والكلاب هي المسالمة والظافرة وصاحبها الغانم))^(٣).

فالجاحظ ((الذي صاغ فكرته بأسلوبه المعهود في حصر مقصديته الواضحة، قد حرص على أن تكون ملاحظته في غاية الدلالة الشعرية لهذه القصص، فوجدها مستمدة من الشاعر، الذي يتحكم في دلالاتها منافياً أن تكون الدلالة التي تأملها في قصة الثور التي تنتهي بمقتله، إذا كانت القصيدة في الرثاء وتنتهي بنجاته في سائر الأغراض الأخرى، مستمدة من حكاية ما، وهو أمر لم ينتبه اليه الدارسون الذين تعلقوا بملاحظة الجاحظ، وسعوا الى تأييد منهجهم

(١) ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١: ١/ ٨٨-٨٩.

(٢) الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مصر، ١٩٢٥م: ٢/ ٢٠.

(٣) ينظر: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، د. علي البطل، ط ٢، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١: ١٢٤-١٢٥.

في تفسير كل مقاطع القصيدة على وفق المنهج الأسطوري أو الرمزي، مع ما بينهما من تشابك.

أما في نظر النقاد المحدثين فقد وجد الدكتور علي البطل أنّ الشاعر إنما يشبّه ناقته بالثور احياءً لتجليات الإله القمر، الذي ثبت للبطل أنّ العرب القدماء قد عبّوه، واتخذوا الثور رمزاً له ومثلاً لهذا الإله، أمّا البقرة التي قرنت الناقة بها فلا تبتعد كثيراً عن الإله الشمس المعبود عند القدماء^(١).

أما الدكتور أحمد كمال زكي فيرى أنّ كلاب الصائد التي تظهر في قصص الحيوان التي يقرن الشاعر ناقته بها هي الأخرى من بقايا اسطوريته وقد وظفها الشعراء في قصائدهم، لأنهم يزيدون التلميح الى ما سيؤول اليه مصير الخصوم الذين كثيراً ما شبّهوا بالكلاب في قصائد الهجاء، وإن القصة برمتها اشارة الى مرحلة من مراحل تقديس الحيوانات، وتحديداً الى لعنة المصريين القدماء للكلب، عندما نهش جثة ابلّيس، العجل الطوم، إذ تسامح العرب ذلك، وثبت لهم أنّ الكلاب والنجوم لا تستطيع أن تتال من الثور النجم^(٢).

ولعلّ أكثر هذه الأساطير التي قرنت بها الناقة غرابية هي تلك التي أثبتتها الدكتور مصطفى الشوري عندما تصور أنّ العرب تصوروا السماء ناقةً وتصوروا مطرها حليياً... ثم يعقد مقارنة بين هذا التصور وتصور المصريين القدماء لها^(٣).

أما الدكتور عبد الجبار المطلبي كان أكثر وضوحاً من أصحاب هذا الاتجاه الذي قرن أصحابه الناقة بالثور الوحشي الأسطورة، لأن المطلبي قد تحدث عن قصة الثور الوحشي، فهو لن يعلن إقتران الناقة بهذا الحيوان إنما حاول تفسير ظهور صورة الحيوان في القصيدة الجاهلية، إذ نص على أن بعضاً من مظاهر صورة الثور في الأدب الجاهلي لا يعني انتقال الديانة القديمة المتصلة بالثور إلى العرب الجاهليين والشأن ذاته في بعض ملامح صورة الاستسقاء عنده، ولاسيما إذ انحسب المطر ذاكراً ما كانوا يفعلونه في تعليق حطب السلع والعشر في أذنان البقر، ثم يضرمون فيها النار وهم يصعدون بهذا البقر إلى الجبل، إذ وجب

(١) ينظر: التفسير الأسطوري للشعر العربي القديم، د. أحمد محمد، مجلة فصول، المجلد

الأول، العدد الثالث، ابريل، ١٩٨١م: ١٩٠.

(٢) ينظر: الشعر الجاهلي تفسير اسطوري، مصطفى الشوري، ط١، دار المعارف، ١٩٨٦م:

١٤٢.

(٣) ينظر: مواقف في الأدب والنقد، د. عبد الجبار المطلبي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام،

بغداد، ١٩٨٠ : ١٠٦-١٠٧.

المطلبي أنها طقوس قديمة تكشف عن قوة تحكم هذه الطقوس بالسحب^(١).
 مما لاحظنا أن أصحاب الاتجاه الأسطوري قد عمدوا عن قصد أو عن غير قصد على
 تعمية صورة الناقة، فضلاً عن تقطيع أوصال القصيدة العربية شأنهم شأن صنيع ما سمعه
 ابن قتيبة عنها فقد جعلوا الأسطورة غاية في تناولهم للقصيدة الجاهلية لا وسيلة لفهمها.
 فأضروا بعالم القصيدة الجاهلية الداخلي، ولم يزيدوا الدارسين لها وعياً بعالمها الداخلي، ولا
 ببنائها الرمزي الجمالي وموازاتها للعالم المحيط به^(٢).
 مما تقدم يمكن القول إنَّ على الدارس للقصيدة الجاهلية أنَّ يدقق النظر برسومها،
 محاولاً تفسير أو تأويل دلالتها في ضوء سياقها الذي جاءت فيه، فالشاعر الجاهلي كما أسلفنا
 لم يكن متعلماً في ميدان الشعر، وإنما كان معلماً، ولا شيء يمكن أن يكسب أية محاولته
 فهمه بأناة وروية لا الاكتشاف وركوب أساليب تظهر عليها جلياً نزعة الالتواء بالنصوص
 وتوجيهها وجهةً بعيدة تفقد سماتها الفنية الدالة^(٣).

اهتم الشعراء الجاهليون بوصف الإبل، لأنها رفيقتهم في الصحاري ولتحملها وعورة
 الصحاري ومقاومتها ظروفها، لذلك كثر ذكرها في أشعارهم حتى نجدتها في أكثر قصائدهم.
 فالناقة هي أبرز الحيوانات التي عُني بها الشاعر الجاهلي فهي مصدر الخير والرزق
 له، فقطع الفيافي دون علة أو ملل^(٤)، فهي من وسائل النقل التي تحمل ما يفرضه السفر
 عليها من الجهد والمشقة لتبلغ بهم أماكن لم يكونوا بالغياها إلا بشق الأنفس وأداة للتسلية التي
 يفرجون فيها عن أحزانهم^(٥)، فكانوا بها يسلون همومهم فتذهب عن نفوسهم بوادر الألم والضيق
 وبسرعتها ومشيتها تُثار نوازعا لوصفها، وهي جسر ينتقلون بواسطته في حديث النسيب

- (١) ينظر: مواقف في الأدب والنقد، د. عبدالجبار المطلبي: ١٠٦-١٠٧.
- (٢) ينظر: شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب رومية، عالم المعرفة، مجلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، آذار، ١٩٩٦م: ٨٥.
- (٣) صورة الناقة في القصيدة الجاهلية بين الوظيفة الشعرية ونتاج الدلالة الرمزية، د. سعيد حسون العنبيكي، كلية اللغات بغداد، مكتبة عين الجامعة، بحث منشور على شبكة الانترنت: ٣٦٥.
- (٤) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط٤، بيروت، ١٩٨٣م: ٣٦٦.
- (٥) بنية القصيدة الجاهلية دراسة فنية موضوعية، سعيده علي عبدالواحد، رسالة ماجستير، بإشراف د. عبدالرحمن عطا المنان، كلية الدراسات جامعة أم درمان الإسلامية، كلية الدراسات العليا، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م.

الحزين الذي يشتد فيه الألم. حتى يؤثر في النفس فيكاد يبلغ اليأس والجوع^(١).
نجد أنّ الشعراء دائماً بعد الأطلال وبعد الوقوف عليها والبكاء على الديار والتوجّع من
الزمن والألم والحسرة على ديارهم.
لقد وصف الشعراء الناقة وصفاً دقيقاً وقد شبهوها بالعديد من الحيوانات مثل: الظليم
والثور والحمار الوحشي.

يقول الجاحظ: ((ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أو أن تكون
الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها
كذا، أن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أن ذلك حكاية عن قضية بعينها ولكن الثيران
ربما رجحت الكلاب وربما قتلتها، أما في أكثر من ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي
السالمة والظافرة وصاحبها الغانم))^(٢).

وقد وصف الشعراء الناقة أوصاف كثيرة، وأكثر الأوصاف التي دارت على ألسن
الشعراء كانت عبارات "مقدوفة" "عذافرة" و"الوجناء" و"عرمس" و"غلباء" و"عجس" و"علندة"
و"مذكرة" والزيافة وشدتيه وعرندسة وعتريس" وأوصاف كثيرة.

لقد شغل وصف الناقة العديد من الشعراء إذ نجد الوصف ظاهرياً في معلقة طرفه وذلك
في قوله^(٣):

وإني لأمضي الهَمَّ عندَ احتضارهِ	بعوجاءِ مرقالٍ ترُوحُ وتَغْتدي
أمونٍ كالأواحِ الإرانِ نضأتها	على لاجِبٍ كأنه ظَهْرُ بُرْجِدِ
لها فخذانِ أكملِ النخضِ فيهما	كأنهما بابا منيفٍ مُرْدِ
وطيِّ محالٍ كالحنيِّ خلوفه	وأجرنةً لرتتِ بدأيٍ مُتَضِّدِ
كقنطرةِ الروميِّ أفسَمَ ربهَا	لتكَنَفَنَ حتى تشادَ بقَرَمِدِ
وأتلعُ نهاضٍ إذا صعدتِ بهِ	كسُكَّانِ بوصيِّ بدجالةٍ مُصْعِدِ

(١) الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: ٢٠/٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠.

(٣) شرح المعلقات السبع، الحسن بن أحمد الزوزني، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع،

١٠، بيروت، ٢٠٠٥م: ٥٢.

ونجد أن عنتره يصف الناقة بقوله^(١):

هَلْ تَبْلَغُنِي دَارَهَا شَدْنِيَّةٌ لُعِنْتَ بِمَخْرُومِ الشَّرَابِ مُصْرَمٌ
حَطَّارَةٌ غِيبَ السُّرَى زَيَافَةٌ تَطْسُ الْإِكَامِ بِوَحْدِ خُفٍّ مِثْمِ

أما النابغة الذبياني فقد وصف ناقته وصفاً رائعاً ودقيقاً إذ نجده يشبهها بالحمار في

نشاطها الدائم وكذلك شبهها بالثور الوحشي، إذ يقول^(٢):

فَعَدَّ عَمَّا تَرَى إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ وَأَنْمِ الْقُتُودَ عَلَى عَيْرَانَةٍ أَجْدِ
مَقْدُوفَةٍ بِدَخِيسِ النَّحْضِ بَازِلُهَا لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفَ الْقَعْوِ بِالمَسَدِ
كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بَنَا يَوْمَ الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ
مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ طَاوِي المَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرْدِ
سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَازِ سَارِيَةٌ تُرْجِي الشَّمَالَ عَلَيْهِ جَامِدِ البَرْدِ
فَارْتَاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَابِ فَبَاتَ لَهُ طَوَّعَ الشَّوَامَتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرْدِ
فَبَثَّنَهُنَّ عَلَيْهِ وَأَسْتَمَرَ بِهِ صُمُغَ الكُغُوبِ بَرِيئَاتٍ مِنَ الحَرْدِ
وَكَانَ ضُمْرَانُ مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ طَعَنَ المَعَارِكِ عِنْدَ المُخَجَرِ النَّجْدِ
شَكَّ الفَرِيصَةَ بِالمِذْرَى فَأَنْفَذَهَا طَعَنَ المَبِيطِرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ العَضْدِ
كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُودُ شَرِبِ نَسُوهُ عِنْدَ مُفْتَادِ
فَظَلَّ يَعْجُمُ أَعْلَى الرُّوقِ مُنْقَبِضًا فِي حَالِكِ اللُّونِ صَدَقِ غَيْرِ ذِي أَوْدِ
لَمَّا رَأَى وَاشْتَقَّ إِقْعَاصَ صَاحِبِهِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى عَقْلِ وَلَا قَوْدِ
قَالَتْ لَهُ النَّفْسُ إِنِّي لَا أَرَى طَمَعًا وَإِنَّ مَوْلَاكَ لَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَصِدِ

نجد أن في هذه الأبيات من المعلقة أن الشاعر يبدأ بتشبيه ناقته بثور وحشي الذي يجمع فيه صفات القوة والنشاط والخصوبة، فهو ضامر البطن أبيض لَمَاع كالسيف المسلول، يجري في الصحراء وقد تملكته الوحشة لإنفراده عن قطيعه، ويبدو خائفاً متوجساً بما تسقطه

(١) شرح المعلقات السبع، الحسن بن أحمد الزوزني: ١٤٧.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ١٦.

عليه السماء من أمطار غزيرة وحبّات البرد، فيمضي ليلته جائعاً خائفاً من عدوان الطبيعة عليه (ان هذا الثور يمثّل رمزاً للنابغة الذي يصارع الأهوال... ولا يكاد يتخلص من هم حتى يهجم عليه همّ آخر، فها هو الثور يُعاني من الجوع والمطر والبرد، ولم يكتفِ بهذا بل يفاجئه صوت الصياد وكلابه، ويظل في صراع معهم حتى ينتصر وما هؤلاء الكلاب الا أعداء النابغة الذين وشوا به الى النعمان^(١)).

قد نفهم من تشبيه الشاعر ناقته بالثور الوحشي عدّة صفات هي القوة والبطش والقدرة على احتمال المصاعب وأهوال الطريق والصبر والجرأة فعندما يصف ثور الوحش وهو أبيض واقفاً في الليل ثم يهجم عليه الكلاب عند طلوع النهار إذ يلحظه الصايد، فبيت كلابه وراء الثور ويغيرها بلحمه، فيتقدم الكلب الأول واسمه (ضمران) مهاجماً الثور كما في قوله^(٢):

فَارْتَاعَ مِنْ صَوْتِ كِلَابٍ فَبَاتَ لَهُ طَوَّعَ الشَّوَامَتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرْدِ
فَبَثُّهُنَّ عَلَيْهِ وَأَسْنَمَرَ بِهِ صُمُعُ الكُغُوبِ بَرِيئَاتٍ مِنَ الحَرْدِ
وَكَانَ ضَمْرَانُ مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ طَعْنُ المُعَارِكِ عِنْدَ المُحْجَرِ النُّجْدِ

إذ يهاجم الكلب (ضمران) الثور فيطعنه الثور بقرنه طعنة نافذة كطعن المبيطر، فيبقى

الكلب ضمران بعض أعلى القرن متألماً من تلك الطعنة المميّنة، إذ يقول الشاعر^(٣):

شَكَّ الفَرِيصَةَ بِالمِذْرَى فَأَنفَذَهَا طَعْنُ المَبِيطْرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ العَضْدِ
كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُودُ شَرِبِ نَسْوِهِ عِنْدَ مُفْتَادِ
فَطَلَّ يَعْجُبُ أَغْلَى الرُّوقِ مُنْقَبِضًا فِي حَالِكِ اللُّونِ صَدَقَ غَيْرِ ذِي أَوْدِ

فلما رأى الكلب الثاني (واشق) مصرع ضمران شعر باليأس والخوف والرعب من هذا

الثور الأسطوري الذي لا تستطيع الكلاب الانتصار عليه، إذ يقول^(٤):

لَمَّا رَأَى وَاشِقُّ إِفْعَاصَ صَاحِبِهِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى عَقْلِ وَلَا قَوْدِ

(١) بنية القصيدة الجاهلية دراسة فنية موضوعية، سعيدة علي عبدالواحد، جامعة أم درمان

الاسلامية، كلية الدراسات العليا، رسالة ماجستير، ٢٠٠٦-٢٠٠٧.

(٢) ديوان النابغة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم: ١٨-١٩.

(٣) المصدر نفسه: ١٩-٢٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٠.

قَالَتْ لَهُ النَّفْسُ إِنِّي لَا أَرَى طَمَعًا وَإِنَّ مَوْلَاكَ لَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَصِدْ

فذهب مدافعاً عن نفسه وحياته وفرّ هارباً عندما رأى مصير صاحبه الموت والهلاك، فكان النصر في نهاية المعركة للثور على تلك الكلاب المعتدية التي تمثل رمز الشرّ والموت في رحلة الشاعر بحثاً عن الحياة.

فالنابغة أبدع وأجاد في رسم مشهد العراك الذي دار بين الثور الوحشي والكلاب التي أرسلها الصياد وهي (تجسيد لفكرة شغلت أذهان الجاهليين منذ أمد بعيد وهي فكرة انتصار الحياة على الموت وانتصار الحياة على الموت وانتصار قوى الخير في الطبيعة على قوى الشر المتمثلة هنا في الكلاب والصياد).

إنّ معرفة الأحوال الأسطورية لمشهد العراك بين الثور والصياد وكتابه يقول علي البطل ((إننا أمام أسطورة ضاع أصلها وبقين منها هذه العناصر التي تشير الى بعض ملامح هذه الأسطورة الضائعة، فالثور كما نعلم رمز الاله القمر... والقمر حين يظهر في بداية الليل))^(١).

إذن صورة الناقة في قصيدة النابغة تمثل وصفاً موضوعياً من يحمله من دلالات على الأشياء التي شملها الصراع، من الثور الوحشي والكلاب والصائد فيقول^(٢):

مِنْ وَحْشٍ وَجِرَّةٍ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ

سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَزَاءِ سَارِيَةٌ تُزْجِي الشَّمَالَ عَلَيْهِ جَامِدَ الْجَبَدِ

فَارْتَاعَ مِنْ صَوْتِ كِلَابٍ فَبَاتَ لَهُ طَوَّعَ الشَّوَامَتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرْدِ

إنّ هذه الصورة لم تكن مقصودة لذاتها بل إنها ذات دلالة أولى تشير الى دلالة ثانية، أي أنّ النابغة يحاول أن يسقط محنته على صراع الثور ولذلك فإنه انتصاره في المعركة، هو انتصار النابغة في قضيته مع النعمان.

إنّ صورة الثور عند النابغة تمثل النابغة نفسها وقد سيطر عليه الخوف والقلق والفرع، وقد وشى به أعداؤه وملاً قلب النعمان عليه، فشأنه شأن الثور تحاصره الشوك والظنون في كل جهة، وكذلك خصوم النابغة الذين يسعون الى نهش لحمه مثلما سعى الصائد وكتابه الى نهش لحم الثور والقضاء عليه فيقول^(٣):

(١) الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري دراسة في أصولها وتطورها،

دار الأندلس، ط٢، بيروت، ١٩٨١م: ١٣٠.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل: ١٧-١٨.

(٣) المصدر نفسه: ١٨-١٩.

فَبَتَّهَنَّ عَلَيْهِ وَاسْتَمَرَ بِهِ
 وَكَانَ ضَمْرَانُ مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ
 صُمْعُ الْكُغُوبِ بَرِيئَاتٍ مِنَ الْحَرْدِ
 شَكُّ الْفَرِيصَةِ بِالْمِدْرَى فَأَنْفَذَهَا
 طَعْنَ الْمُعَارِكِ عِنْدَ الْمُحْجَرِ النَّجْدِ
 كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ
 سَفُودُ شَرْبِ نَسْوِهِ عِنْدَ مُفْتَادِ
 فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقِ غَيْرِ ذِي أَوْدِ
 فَظَلَّ يَعْجُمُ أَعْلَى الرَّوْقِ مُنْقَبِضًا

وإذا كانت نتيجة الصراع معقولة، فإن سبب الصراع هو الاندفاع اللامعقول لإرادة الحياة من أطراف الصراع كافة من أجل البقاء.

الخاتمة

عندما كانت الصحراء تمثّل مسرحاً للارتحال كذلك كانت تمثّل مسكناً للجاهليين. فأصبح الارتحال بالنسبة للجاهلي يعني الحياة بأكملها وبيئة الجاهليين هي الصحراء بينما متطلبات الصحراء تفرض مبدأ الارتحال وعدم الاستقرار لذلك وجدنا أنّ الارتحال يدخل في الصيد والتجارة والجدب، وكذلك الحروب وأيام العرب وموضوعات الشعر المختلفة وكذلك عكست صورة الناقة في مجملها الصورة الأقرب للذات الشاعرة، لذلك وجدت الذات الشاعرة في الناقة ملاذاً لرحلتها مثلما فعل الشاعر النابغة الذبياني في رحلته عبر ناقته للبحث عن البدائل فما كان للشاعر الا ان ترجم ذلك الانسجام بينه وبين ناقته في قصائده وبذلك عزز الشاعر الصدق الفني في معلقته.

ثبت المصادر

- ❖ بنية القصيدة الجاهلية، سعيده علي عبدالواحد، كلية الدراسات العليا، جامعة أم درمان الإسلامية، رسالة ماجستير، ٢٠٠٦-٢٠٠٧ م.
- ❖ تفسير القرآن الكريم، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، مكتبة الايمان المنصور، مصر، ج٨، ط١، ١٩٩٦ م.
- ❖ الحيوان، الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ت٢٥٥هـ، ج٢.
- ❖ الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، مصر، ١٩٨٣ م.
- ❖ ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ٢٠١٧ م.
- ❖ ديوان النابغة الذبياني، تحقيق وشرح كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت.
- ❖ ديوان امرؤ القيس، اعتنى به وشرحه عبدالرحمن المصطاوي، دار المعرفة، ط٤، بيروت، لبنان.
- ❖ شرح المعلقات السبع، الحسين بن أحمد الزوزني، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، ط١، ٢٠٠٥.
- ❖ الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط٤، الأندلس، بيروت، ١٩٨٣ م.
- ❖ الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، محمد النويهي، الدار القومية للطباعة والنشر، ج١.
- ❖ الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨١ م.
- ❖ شعرنا القديم والنقد الجديد، د. وهب رومية، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦ م.
- ❖ الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، ط٢، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨١ م.
- ❖ الطبيعة في الشعر الجاهلي، نوري حمودي القيسي، عالم الكتب، ط٢، ١٩٨٤ م.
- ❖ طرفة بن العبد، تحقيق وشرح الدكتور رحاب خضر عكاوي، دار الفكر العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٣ م.
- ❖ لبيد بن ربيعة العامري، شرح ديوانه وتحقيق دكتور احسان عباس، ط٢، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤ م.
- ❖ وصف الطبيعة في الشعر الجاهلي، اسماعيل أحمد شحادة، مؤسسة الرسالة، دار عمان.